محكم

تقنيّات المُتخيّل في النّصوص المقدّسة للأديان الكتابية

محمد إدريس
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

احتوت النصوص المقدّسة والنصوص الدينية على قصص عديدة مختلفة الأنواع (قصص الأمم، قصص الأنبياء والرسل، قصص مصائر العباد في الآخرة،...)، وقد قامت أغلب القصص على أحداث مُتخيّلة متنوعّة، فبعضها غريب وبعضها عجيب، وبعضها معجز، وقد تميزت هذه الأشكال بتنوّع تقنيّات المُتخيّل وتعدّدها.[1] وما يشدّ الانتباه في ما يتعلّق بعلاقة تقنيات "الحدث المُتخيّل" بأشكاله، أنّ التقنية الواحدة لم تتصل بضرب معين من الأحداث المتخيلة دون سواه، بل هي تسري في جميعها، وفي هذا الشأن نتناول بالتحليل بعض تقنيات الأحداث المتخيّلة المذكورة في النصوص المقدّسة للأديان الكتابية، ومن أهمّ هذه التقنيات: التحويل والقدرة الخارقة والتركيب، وهي تقنيات ثلاث نخصص لها أغلب أجزاء البحث.

أ- التّحويل

نعالج في ما يتّصل بالتحويل أربعة مظاهر، وهي: المسخ والفسخ والقلب والتّجسّد، وهي أنواع منتشرة انتشارا بيّنا في النّصوص المقدسة والنّصوص الحواف، وفي سائر مجالات الثّقافة الشّعبيّة.[2]

أ-1: المسخ

عرّف الراغب الأصفهاني في المفردات غريب القرآن" المسخ بأنّه" تشويه الخَلْقِ والخُلُق وتحويلهما من صورة إلى صورة [... و] المسخ ضربان [عند البعض]: مسخ خاص يحصل في العينة، وهو مسخ الخَلْقِ، ومسخ قد يحصل في كل زمان، وهو مسخ الخُلُقِ، وذلك أنْ يصير الإنسان متخلّقا بخلق ذميم من أخلاق بعض الحيوانات. نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير".[3]

1- ذكر الجمل (بسّام): ليلة القدر في المُتخيل الإسلامي، مؤسسة القدموس الثقافية، ط 1، دمشق،2007 خمس تقنيات للمتخيّل حلّل أربعا منها، وهي: الرؤيا، القلب، التركيب والتوليد، الإضافة والتضخيم. (أُنظر من ص74 إلى ص 94). أمّا التقنية الخامسة -تقنية المنع- فأشار إليها صاحب الكتاب في الهامش الثالث الوارد في ص 128 وص 129). وقد ذكر ذويب (حمّادي): الحجر الأسود في الإسلام بين المقدّس والتاريخ، ضمن مجلة آداب القيروان العدد التاسع والعدد العاشر (مجلد واحد)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، القيروان تونس، 2012 -2013، ص 324 ص 326 خمس تقنيات، وهي: المحاكاة، التعالي، القلب، تشخيص الحجر وأنسنته، آلية المماهاة بين الحجر الأسود والله (لاحظ استعمل حمّادي ذويب مصطلح آلية بدلا من مصطلح تقنية).

2- أُنظر باسم المكّي الذي ذكر في "المعجزة في المُتخيل الإسلامي من خلال كتب قصص الأنبياء" أطروحة دكتوراه موحده بإشراف الأستاذ حمّادي المسعودي،(بحث مرقون) بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس/ جامعة صفاقس: 2007-2008، ص 218 أشكالا عديدة من المسخ التي أنشأها المُتخيل الإسلامي السني والشيعي، وقد أشار صاحب البحث كذلك إلى انتشار هذه الظاهرة في الثقافات المتوسطية (اليونانية، الرومانية، ...).

3- أُنظر الأصفهاني (أبا القاسم الرّاغب): المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط 1، القاهرة مصر، (د ت)، ص 605. وما يلفت الانتباه في الضرب الثاني أنّ المسخ يتّخذ بعدا مجازيا يتمثّل في اتباع الإنسان بمحض إرادته سلوكا حيوانيا (الخنزير،...).

المسخ - حسب الضرب الأول - والذات البشريّة مدارها الفصل التّام بين الجسد والإرادة؛ فالمسخ لا يعني تحوّل الذات البشريّة من جسد إلى آخر فحسب، وإنّما هو انتقال من وضع الإنسانيّة إلى وضع الحيوانيّة؛[4] أي من وضع التّشريف إلى وضع التّقبيح. فـ"المسخ عيبٌ يصيب الصّورة فيحوّلها من الصّورة المثال إلى الصّورة المُستهجنة."[5] وما الصّورة إلاّ مرآة تخبر عن الجوهر الكامن وراءها.

إنّ المتأمل في النصوص المقدسة يلحظ الحضور المكثّف لظاهرة المسخ، بيد أنّ الدّلالات المتعلّقة بهذه الظاهرة اختلفت من نصّ إلى آخر، فلئن كان المسخ في "القرآن الكريم" في أغلب الأحيان آية من آيات الفعل الإلهيّ، وشكلا من أشكال العقاب الإلهيّ الّذي يُنزّله الله بالمشركين والكافرين، فإنّ "إنجيل الطّفولة" جعل المسخ علامة دالة على قدرة النّفوس الشّريرة على إلحاق الضّرر بالإنسان.

على أنّ مؤلّفي "إنجيل الطّفولة" اعتبروا في أكثر من موضع المسخ مجالا لإبراز القدرة الإلهيّة للرّبّ يسوع، ذلك أنّ إعادة الإنسان إلى الوضع الأوّل تفترضُ أنْ تكون قوّة الـمُعيد فوق قوّة المَاسخ، وهو ما تجلّى في إعادة المصريّ إلى وضعه الإنسانيّ بعد أنْ مسخه السّحرة بغلا.[6]

المسخ الذي أنجزه السحرة أو الجنّ في هذه الحادثة مسخ مؤقت، إذ يعود الممسوخ إلى أصله بفضل المسيح، في حين يظلّ على تلك الحالة من مسخه الله.

واللافت للانتباه، أنّ المسخ في النّصوص المقدسة ضربان: الأوّل يكون بمحض اختيار الممسوخ،[7] أو وفق إرادة الله، وبذلك لا يمكن اعتبار المسخ عقابا، لأنّه مسخٌ مُؤقّتٌ تطلّبته الضّرورة، ومثال ذلك "الرّوح القدس" وتجسّده في شكل حمامة عند تعميد يسوع.[8] أمّا الضّرب الثّاني، فيكون الممسُوخ فيه فاقدا للإرادة يقع عليه المسخ عقابا له[9] أو حسدا وظلما وذلك وفق إرادة المَاسخ.[10]

4- أُنظر قول جواد (علي): المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت في نشره جامعة بغداد، ط 2، العراق، 1993، مج 6، ص 143 "المسخ هو تحوّل صورة إلى صورة أخرى أقبح وتحوّل إنسان إلى صورة أخرى أقبح أو إلى حيوان كأنْ يصير إنسان قردا أو حيوانا آخر أو إلى شيء جماد" وما يستفاد من كلام جواد علي أنّ المسخ ليس دائما تحوّل إلى حالة حيوانيّة.

5- ذكر ابن منظور (جمال الدّين): لسان العرب، دار صادر، ط 1، بيروت لبنان، 1997 في مادة (م، س، خ) أنّ "الْمَسخَ تَحوِيلُ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ أَقْبَحَ مِنْهَا".

6- أُنظر "إنجيل الطّفولة"، ترجمه عن الأنكليزية وقدّمه له حافظ محمّد علي الجمالي، دار الأهالي، ط 1، (دون مكان)، 1998

7- يكثر هذا الشّكل في نصوص القديمة مثل ألف ليلة وليلة، أُنظر على سبيل المثال "حكاية الحمّال والبنات"، ألف ليلة وليلة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (د ت).

8- أُنظر العهد الجديد، إنجيل متّى 16/3

9- أُنظر الفصل السّابع والعشرين من إنجيل برنابا: "قال يسوع: أَ لاَ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ فِي زَمَنِ مُوسَى مَسَخَ أُنَاسًا كَثِيرِينَ فِي مِصْرَ حَيَوَانَاتٍ مُخِيفَةً" إنجيل برنابا، ترجمة خليل سعادة، قدم له محمّد رشيد رضا وعلّق عليه أحمد حجازي السقّا، كنوز للنشر والتوزيع ، ط 1، القاهرة مصر، 2006، ص 153

10- نشير إلى وجود شكل آخر غير الشكلين المشار إليهما، ويتمثل الشكل الثالث في تحوّل الإنسان إلى طير دون أنْ يكون وراء ذلك عقاب أو ضرورة، ومثال ذلك تحوّل روح الميّت إلى هامة/الصدى، وللمزيد من التوسع في هذه المسألة أُنظر الهامش الثامن والعشرين من هذا البحث.

فالمسخ في الوضع الأوّل ضرورة من ضرورات التّواصل بين عالم الغيب والشّهادة. أمّا في الوضع الثّاني، فكان المسخ مسبوقا بانتهاك الإنسان فردا كان أم جماعة لجملة من النّواهي والأوامر الإلهيّة، ويكون بذلك المسخ إقصاءً لمُنتهك الأوامر عن الجماعة؛ فالأوامر الإلهيّة من هذا المنظور هي جوهر النّاموس الاجتماعيّ، وهي أسّ الممارسات والعلاقات الّتي تربط بين أطرافه.

ويبدو أنّ المسخ كان ظاهرة مقتصرة على الجانب الخلقيّ، إذ يظلّ الجانب العاقل في الإنسان ثابتا، وذلك بالنّظر إلى ما يتطلّبه العقاب من وعي الممسوخ بالتحول الذي طرأ على خلقته، فـ "كأنّ المسخ مجرّد غطاء حيوانيّ يحجب النّفس الإنسانيّة لفترة ما".[11]

والطّريف في تناول النّصوص الدّينيّة للمسخ، أنّها حدّثتنا عن مسخ الإنسان في هيأة حيوانات أليفة (الحمار...) أو في شكل حيوانات قريبة من الإنسان شكلا (القرد)،أو هي من أقبح الحيوانات هيأة (الخنزير)، على أنّنا نعثر في "التّوراة" في قصّة سقوط آدم على أشكال جديدة من المسخ تنهض بالوظيفة التّفسيريّة.

فالحيّة في قصّة الخلق التّوراتيّة، تعاقب على إيقاعها بحوّاء Eve بأنْ جعلها الرب الإله على "بَطْنِها تَسْعى".[12] أمّا "القرآن الكريم"، فأشار في مواضع معيّنة إلى المسخ بطريقتين مختلفتين؛ أولاهما تمّ فيها ذكر المسخ حرفيًا دون تحديد شكله، وذلك في قوله تعالى:"وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ.[13] أمّا الثّانية، فتتمثّل في تحديد نوع المسخ دون ذكر أيّ مشتقّ من مشتّقات الجذر اللّغويّ (م، س، خ)، وذلك في قوله تعالى: "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ"،[14] وفي قوله تعالى: "قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ."[15]

أدّى المسخ في النّصوص الدّينيّة المقدسة دورين متوازيين؛ أوّلهما تأكيد القدرة الإلهيّة (العقاب، إعادة الممسُوخ إلى أصله). أمّا الدور الثّانيّ، فهو تفسير الظّواهر الطّبيعيّة أو الجسديّة، وهو ميسم مميّز للخطاب الأسطوريّ غالبا.

11- أنظر أبا بكر (أميمة): المسخ في ألف ليلة وليلة، مجلّة فصول المصرية، المجلد الثالث عشر، العدد الأوّل، القاهرة مصر، 1994، ص 242

12- أنظر العهد القديم، سفر التّكوين 14/3

13- أنظر سورة يس 67/36

14- أنظر سورة البقرة 65/2

15- أنظر سورة المائدة 60/5

جاء المسخ يلبيّ حاجة الإنسان المُؤمن في التّأكّد من أنّه صاحب الصّراط السّويّ، وجاء ليثبّت أقدامه، وليرسّخ في الوعي الإنسانيّ قدرة الله المطلقة على الفعل، وبالتّوازي أجاب المسخ عن أسئلة الإنسان حول المخلوقات والظّواهر الجسدّية والطّبيعيّة....

فلئن كان المسخ "دنسا خلقيّا وظاهرة تشمل الإنسان والحيوان"،[16] مثل الفسخ والقلب، فإنّه من الآيات الدّالة على صانع الوجود وقدرته، وهي بعض أشكال الوعيد والوعد، ورسالة مُوجّهة إلى الإنسان في كلّ زمن ومصر تكشف أنّ الله قادر على كلّ شيْء.

أ-2: الفسخ[17]

تبدو أمثلة الفسخ في النّصوص المقدسة قليلة مقارنة بأمثلة المسخ،[18] بل إنّ جميعها ورد في ثنايا النّصّ المقدس دون توضيح، وأهمّ مظاهر الفسخ التي ذُكرت في النص الدّيني تحوّل الإنسان إلى حجر، إذ أشار "القرآن الكريم" إلى ذلك في سورة الإسراء بقوله تعالى: "قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا."[19]

إنّ تحوّل الإنسان إلى شيء جامد أمر كثير الحضور في ثقافات الشّرق القديم؛ فالعرب ذهبوا إلى القول إنّ "اللاّت كان رجلاً اعتقدوا بدخوله في صخرة فعبدوها، وكذا الأمر بالنّسبة إلى "آساف"، و"نائلة" اللّذين فعلا الفاحشة في جوانب البيت العتيق في غفلة من النّاس، فحُوّلا إلى حجرين،[20] وكذلك شأن الـ"سهيل" الّذي كان عشاراً على طريق اليمن، وقد كان شديد الظُّلم للعباد، فجعله الله كوكباً. أمّا "الزّهرة"، فـ"زعموا أنّها كانت بغياً عرجت إلى السّماء فحوّلها الله شهاباً ".[21]

16- أُنظر المكّي (باسم): المعجزة في المُتخيل الإسلامي، (سبق ذكره)، ص 207

17- نشير في ما يتعلق بالفسخ إلى اختلاف التعريفات وتعدّدها، فابن منظور في لسان العرب، (سبق ذكره)، في مادة (ف، س، خ) ذهب إلى أنّ "فَسَخَ الشّيءَ [..] نَقَضَهُ فَانْتَقَضَ [...] وَالفَسْخُ: زَوَالُ المَفْصَلِ عَنْ مَوْضِعِهِ". أمّا ثروت عكاشة في المقدّمة التي وضعها لأوقيديوس (يوبليوس): مسخ الكائنات ميتامورفوزس، ترجمهُ وقدّم له ثروت عكاشة، وراجعه عن اللاتينيّة مجدي وهبه، الهيأة المصرية العامة الكتاب، ط 3، القاهرة مصر، 1992، ص 28 فأشار إلى أنّ "أصحاب التناسخ [ذهبوا إلى القول إنّ] النسخ هو نقل الروح إلى جسم أرفع والمسح هو نقل الروح إلى ذوات الأربع [أي الحيوان] والفسخ هو نقل الروح إلى الحشرات والرسخ هو نقل الروح إلى النبات والجماد".

18- إنّ أبرز الأمثلة الّتي تقاسمها "القرآن الكريم"(سورة الأعراف 83/7 وسورة الحجر 60/15 وسورة النمل 57/27 وسورة العنكبوت 32/29) مع "العهد القديم، سفر التّكوين 26/19" تحوّل امرأة لوط إلى عمود من الملح. وفي ما يتصل بهذا الحدث نشير إلى أنّ الآيات القرآنية لم تصرح بطبيعة العقاب المسلّط على امرأة لوط.

19- أُنظر سورة الإسراء 1 50/7-51

20- ذكر الكلبي (هشام بن محمّد بن السّائب): كتاب الأصنام. تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، ط 2، سلسلة إحياء الآداب العربية، القاهرة مصر، 1934، ص 29 أنّهما "لمّا مسخا حجرين وُضعا عند الكعبة ليتّعظ الناس بهما، فلمّا طال مُكْثُهُما عُبدت الأصنام عُبدا معها".

21- أُنظر جواد (علي): المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام،(سبق ذكره)، مج 6، ص 144.

الفسخ من هذا المنظور تفسير لأصل الأشياء (الكواكب،الحيوان)،[22] وذلك بإيجاد صلات لها بالإنسان، وليؤكّد صلتها بالله، وليبرز تبعات خرق الإنسان للمحرّمات، ولا يبعد من تلك الغايات النّصّ المقدس، فكأنّنا بـ"المُتخيّل الدّينيّ" يُقيم الحجّة على أنّ الإنسان سيد المخلوقات بانتمائه إلى عالم الإله، وأنّ في خروجه عن الإيمان استعادة للوضع الحيوانيّ، فإذا بالإنسان يقيم في منطقة وسطى بين طلب الكمال والوقوع في النّقصان التّام.[23] ذلك أنّ فقدان الإنسان للحياة وتحوّله إلى جماد "حبس للأرواح الكافرة"،[24] وهو أشدّ العقوبات وطأة على النّفس.

أ-3: القلب[25]

عرّف جواد علي في "المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام" القلب بقوله "القلب، وهو أنْ يُقلب ابن آدم قرداً من غير أنْ ينقص من جسمه طولاً أو عرضاً."[26]

إنّ النظر في هذا التعريف ينتهي بنا إلى القول بأنّ القلب والمسخ واحد، على أنّنا تعمّدنا في مبحثنا هذا التّوسّع في هذا المفهوم، فلم نر في القلب تحوّلا من وضع الإنسان إلى وضع الحيوان،[27] بل جعلنا القلب متعلّقا بكلّ عمليّة تحوّل لا يكون العقاب الغاية من ورائها، فإذا بتحوّل الأشياء عن طبائعها أهمّ تجلّيات القلب، وهو ما يعني بالضرورة أنّ "القلب [..] هو الانتقال من حال أو وضع إلى ما يناقضه مناقضة تامة"[28] وقد يكون هذا الانتقال حاملا لدلالات إيجابية[29] وقد يكون حاملا لدلالات سلبية.[30]

22- أُنظر الجاحظ (أبا عثمان) (ت255 هـ): كتاب الحيوان، تحقيق عبد السّلام هارون، مطبعة مصطفى الباري الحلبي وأولاده، ط 1، القاهرة مصر، 1948، ج 1، ص 222

23- أُنظر اسمندر(عدنان): التّقمص والمسوخية في القرآن، دار التّكوين للنشر والتوزيع، ط 1، دمشق سوريا، 2006، ص 100 وص 120

24- أُنظر المرجع نفسه، ص 105

25- ذكر ابن منظور في لسان العرب، (سبق ذكره)، في مادة (ق، ل، ب) أنّ "الْقَلْبَ تَحْوِيلُ الشَّيءِ عَنْ وَجْهِهِ".

26- أُنظر جواد (علي): المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (سبق ذكره)، مج 6، ص 145

27- نشير في ما يتصل بهذه المسألة إلى أنّ الثقافة العربية الإسلاميّة استعارت من الجاهلية عادات وتقاليد وتصوّرات عديدة من بينها اعتقاد الجاهليين بوجود" طائر [يسمّى الصدى والهام...] يخرج من رأس القتيل الّذي لم يؤخذ بثأره فيزقو عند قبره، ويقول اسقوني من دم قاتلي. أُنظر عجينة (محمد): موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي (بيروت لبنان) ودار محمد علي الحامي (صفاقس تونس)، 1994، ج 1، ص 334، وهو اعتقاد تواصل مع الإسلام؛ فـ"العرب لم يتركوا هذه العقيدة بعد الإسلام. [والدليل على ذلك قول] "ابن الأعرابي: معنى قوله لا هامة وصفر كانوا يتشاءمون بهما، [و] معناه لا تتشاءموا. فهو [ابن الأعرابي] لا ينفي وجود الهامّة أي اتخاذ الروح شكل الطائر بعد مفارقتها [كذا] الجسد وإنّما لا يرى داعيا للتطيّر منها[كذا] لا سيما أنّ لهذا الطائر وجودا حقيقيا" أُنظر بن سلامة (رجاء): الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومسلم، دار الجنوب للنشر، ط 1، تونس، 1997، ص 33

28- أُنظر الجمل(بسّام): ليلة القدر في المتخيّل الإسلامي، (سبق ذكره)، ص 93

29- أُنظر المرجع نفسه والصفحة نفسها.

30- أُنظر في ما يتصل بهذه الدلالات ذويب (حمّادي): الحجر الأسود في الإسلام بين المقدّس والتاريخ، (سبق ذكره)، ص 325

معنى ذلك، أنّ ما ميّز القلب عن الفسخ والمسخ خلوه من البعد الجزائيّ؛ فالنّصوص المقدسة تشير إلى القلب، باعتباره آية من آيات الله، من ذلك تحوّل العصا إلى حيّة في قصّة النّبي موسى[31] وجعل الرب الإله الماء المرّ عذبا في صحراء شُور،[32] وتحوّل الماء إلى خمر مع يسوع في "إنجيل يوحنّا".[33]

تعلّق القلب في هذه الأمثلة بجملة من الموجودات المختلفة فيزيائيّا (الجماد، الكائن الحيّ، السّوائل). وقد قام القلب على عناصر مخلوقة (الماء، الحيّة) وعناصر من صنع الإنسان (العصا، الخمر). ففي ما يتعلق بالحدث الأول، ذكر النص التوراتي أنّ هارون - بحضور موسى - "أَلْقَى[...] عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَونَ وَأَمَامَ حَاشِيَتِهِ"،[34] وفي "القرآن الكريم" أَلْقَى [موسى أثناء مواجهة سحرة فرعون] عَصَاهُ فإِذا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ."[35]

إنّ جعل العصا حيّة أو ثعبانا[36] تحوّل من الموت إلى الحياة، وهي من أهم سمات الله الّذي صوّر في الأديان الكتابية ـ لاسيما القرآن الكريم- بالمحيي والمميت،[37] وهو ما نتبيّنه في عجز السحرة عن محاكاة الفعل الإلهي.[38]

ولا يخرج عن هذا التصوّر ما وقع لبني إسرائيل في صحراء شور؛ فبعد أنْ "ظلّوا يجوبون الصحراء ثلاثة أيّام من غير أنْ يجدوا ماء، وعندما وصلوا إلى مارّة لم يقدروا أنْ يشربوا ماءها لمرارته [...] فاستغاث [موسى] بالرب الإله [الّذي] أراه [..] شجرة فألقاها [موسى] إلى [كذا] الماء فصار عذبا."[39]

الصحراء رمز التيه والموت والفناء والعطش أوّل علامات الهلاك، زد على ذلك الماء الأجاج، جميعها أحوال وأوضاع تنبئ عن موت وشيك، يجعل من الخروج من مصر جنازة ومن الصحراء مقبرة، ولكنّ الإرادة الإلهية حوّلت الماء المرّ إلى ماء عذب زلال، وجعلت من الصحراء منبعا للمياه، فإذا بالرب الإله يبعث في

31- أنظر العهد القديم، سفر الخروج 7/10-15
32- أنظر العهد القديم، سفر الخروج 15/22-25
33- أنظر العهد الجديد، إنجيل يوحنّا 2/9
34- أنظر العهد القديم، سفر الخروج 7/10
35- أنظر سورة الأعراف 7/107 وسورة الشعراء 26/32
36- قارن بين سورة الأعراف 7/107 وسورة الشعراء 26/32 من جهة، وسورة طه 20/20 من جهة أخرى.
37- أنظر سورة يس 37/79 وسورة غافر 40/68 وسورة الشورى 42/9 وسورة الدخان 44/8
38- أنظر سورة الأعراف 7/113 -120، وأنظر العهد القديم، سفر الخروج 7/12
39- أنظر العهد القديم، سفر الخروج 15/22-25

الجسد الموات حياة، وفي الغصن اليابس خضرة، ولا غرابة أنْ تنهض الشجرة بهذا الدور فهي بازدهارها وسقوط أوراقها تجمع بين الموت والحياة، وهي أهمّ مكوّن لـ"جنّة عدن"، وهي صنو الحياة والخلود.[40]

أمّا في ما يتعلق بالحدث الثالث، ونعني به تحوّل الماء إلى خمر على يد المسيح، فإنّ المتأمّل في الآيات الممتدة من الآية الأولى إلى الآية التاسعة من الإصحاح الثاني من إنجيل يوحنّا، يتبيّن له أنّ تحويل الماء إلى خمر في أحد أعراس الجليل حدث مثقل بالرموز، لا سيما أنّ المسيح قد ربط بين الخمر وموته، وهو ما يتجلّى في الحوار الذي دار بين المسيح وأمّه التي قالت له "لم يبق عندهم خمر فأجابها ما شأنك بي يا امرأة؟ ساعتي لم تأت بعد".[41]

الخمر المشار إليها في هذا العرس حامل لدلالتين، تتمثّل الأولى في إحالة الخمر على ما تصيب الجماعة من نشوة ولذة توافق المقام (العرس)، وهي الخمر التي عرفها بنو إسرائيل التي تلحق نشوتها الجسد. أمّا الدلالة الثانية، ففيها يكون الخمر مصدر اللذة الخالدة التي تطول الجماعة في عالم الآخرة، يوم يحوّل دم المسيح (الكفّارة) خمرا يطهّر الناس ويمنحهم السعادة الأبديّة.

واللافت للانتباه في هذه الحادثة، أنّ المسيح حوّل الماء إلى خمر دون عناء أو انتظار، ولا غرابة في ذلك، فهو ابن الله الّذي جاء ليبعث السعادة والفرح.

إنّ المتأمّل في الأمثلة الّتي حلّلنا، يتبيّن له وجود شكلين من القلب في النصوص المقدّسة، وذلك على النحو الآتي:

الأمثلة			أشكال القلب
العصا	←	الحية	القلب المباشر
العصا	←	ثعبان	
الماء	←	خمرة	
الماء الأجاج المرّ	←	ماء عذب زلال	القلب غير المباشر/تمّ بإضافة عنصر جديد (الشجر)

ثبت بأشكال القلب في النصوص المقدّسة

القلب في جميع الحالات هدم لمميّزات الأشياء وخصائصها، أضف إلى ذلك ما تكشف عنه عمليّة القلب من شموليّة القدرة الإلهيّة للظّواهر الطّبيعيّة والحضاريّة، فإذا بالمنجز الحضاريّ يتحرّك في فلك المقدس؛

40- أنظر العهد القديم، سفر التكوين الأصحاح الثالث.

41- أنظر العهد الجديد، إنجيل يوحنّا 2/3-4

فالقدرة الإلهيّة هي الّتي حوّلت الماء (الطّبيعة) إلى خمر (الحضارة)، وكأنّنا بالحضارة الإنسانيّة وبالوجود البشريّ عامة ينطلقان من الإرادة الإلهيّة ويعودان إليها.

أ-4: التّجسّد

تعلّق التّجسّد في النّصوص المقدسة بالكائنات الغيبيّة، وفي تجسد الكائنات الغيبيّة في هيأة إنسان لها ما له من جسد وأعضاء، ما يُوحي بقدرة القوى الغيبيّة على بناء التّاريخ البشريّ وتحديد مساراته والتأثير فيه، من ذلك تجسّد الملائكة للنبي إبراهيم وزوجه هاجر في "سفر التكوين"، وتمثّل الملاك بشرا سويّا لمريم البتول في "الأناجيل" و"القرآن الكريم"، وفي تجلّيها للنبي زكريا.[42]

ولم يقتصر الأمر على الملاك؛ فالشّيطان تجلّى في هيأة إنسان للمسيح يجرّبه، على أنّ أهمّ مظاهر التّجسّد تمثّل في تجسّد الله في التّاريخ من خلال المسيح.

إنّ هذه الحوادث يمكن أنْ نصنّفها إلى صنفين: الصّنف الأوّل يُجسّد متطلّبات عمليّة التّواصل، من ذلك ما ذهب إليه البيضاوي الشيرازي (ت 691هـ) في تجلّي الملاك لمريم البتول بقوله: "أتاها جبريل عليه السّلام متمثّلا بصورة شاب أمرد سويّ الخلق لتستأنس بكلامه".[43] أمّا الصّنف الثّاني ومثاله تجسّد المسيح، فيقوم دليلا على اختلاف عالم الله عن عالم البشر، فإذا بالأقنوم الثّاني؛ أي الابن يتجسّد بشرا، ليترك الجسد في الأرض يوم الصلب، فكان الرّجوع إلى عالم الأب باللاّهوت دون النّاسوت.

إنّ النّصوص المقدسة تختلف جوهريّا في تحديد الأطراف المُتجسّدة، فلئن كان الله تجسّد في "العهد الجديد" وفي "العهد القديم" عندما قابل إبراهيم،[44] فإنّ النّصوص الإسلاميّة بالاستناد إلى "القرآن الكريم" جعلت التّجليّ سمة مميزات للكائنات الغيبيّة (الملائكة، الشّيطان)،[45] ونأت بالله عن التّجسّد، فكأنّها بذلك تعلن عن بشريّة يسوع المسيح وتقطع حبائل الوصل بين عالم الله وعالم البشر، فإذا بالصّلة الّتي تربط بينهما قائمة على التّناغم والتّواصل دون التّماس أو التّماهي.

42- أنظر العهد الجديد، الأصحاح الأوّل من إنجيل لوقا.

43- أنظر البيضاوي الشيرازي (القاضي ناصر الدّين): تفسير البيضاوي المسمى أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، دار الكتب العلمية، منشورات محمّد علي بيضون، ط 1، بيروت لبنان، 1999، ج 2، ص 28

44- أنظر الأصحاح السّابع عشر من سفر التّكوين .

45- أنظر قصة الغرانيق في ابن عاشور(محمّد الطّاهر): تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسية للنّشر والدّار الجماهيرية للنّشر والتّوزيع والإعلان، ط 1، تونس ليبيا، (د ت)، ج 17، ص 296. أو مساندة الملائكة للمسلمين يوم بدر، أُنظر المرجع نفسه، ج 9، ص 274

ب- القدرة الخارقة

نودّ قبل البدء في تبيّن دلالات القدرة الخارقة في النصوص المقدسة، الإشارة إلى كثرة تجلّياتها وتعدد مظاهر حضورها، وهو ما دفع بنا إلى الاقتصار على ستة أنواع، هي: وقوع المستبعد، وخرق منطق الأشياء، والخلق على غير مثال، وإحياء الموتى، والتّحكم في عناصر الطّبيعة، وتكثير الموجود.

ب-1: وقـوع المستبعد

نتناول هذا العنصر بالاستناد إلى حدثين هما: ولادة العاقر بعد تقدّم السن بها وببعلها،[46] وتكلّم الصّبيّ في المهد(عيسى بن مريم).[47]

إنّ وقوع هذين الأمرين يُمثّل خرقا لأفق انتظار القارئ، إذ تتّخذ أحداث القصص نهايات غير مُتوقّعة انطلاقا من الرّؤية الّتي تمّ بها رواية أحداث النّصّ المقدس؛ ففي أغلب الأحيان أوهم الرّاوة القرّاء بأنّ الأحداث سوف تنتهي على النّحو الّذي بدأت به، فالعقم يطول سنين وسنين، وفي اللّحظة الّتي يستبد فيها اليأس بالعاقر وبعلها، ويعتقد القارئ أنّه شارف على النّهاية، يأتي الحدث العجيب كي يقلب الأحداث رأسا على عقب، وقس على ذلك أمر ميلاد عيسى ونشأته؛ فالنّصّ القرآنيّ و"إنجيل الطّفولة" أشارا إلى تكلّم الرّضيع أمام الجماعة، وقد كنّا نعتقد أنّ براءة العذراء ستأتي من قبل الملاك أو عبر الرّؤيا أو غير ذلك من أشكال تدخّل الله في العالم،[48] ولكنّ الرواة خرقوا الآفاق المُنتظرة، فإذا بعنصر المفاجأة عامل إغراق في المُتخيّل.

إنّ خرق أفق انتظار القرّاء عنصر من عناصر جماليّة النّصّ الدّينيّ وبرهان على قدرته على شدّنا إليه، وهو إلى جانب ذلك دليل على أنّ كلّ فضاء يتدخلّ الله فيه هو حيّز لتجلّي العجيب والمفارق.

ب-2: الـخـرق

الخرق بما هو خروج عن المألوف[49] له في النصوص المقدسة أشكال عديدة، أهمّها خرق الفضاء وخرق منطق السببية؛ فبخصوص الشّكل الأوّل نستحضر أمرين هما: الرّفع L'élévation والصّعود L’ascension.

46- مثال ذلك النبي إبراهيم وزوجه في "العهد القديم" و"القرآن الكريم".

47- أُنظر "إنجيل الطّفولة" و"القرآن الكريم" في ما يتعلق بالآيات الّتي تحقّقت على يد المسيح، وهو في المهد أو هو صبي.

48- لمزيد التوسع في هذه المسألة أُنظر إدريس (محمّد): متخيّل أحداث قصص الأنبياء والرسل في الكتاب المقدّس والقرآن الكريم، أطروحة دكتوراه موحده (بحث مرقون)، بإشراف الأستاذ حمّادي المسعودي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان/ جامعة القيروان تونس: 2010-2011، من ص إلى ص 158 وما بعدها.

49- أُنظر في ذلك قول الفراهيدي (أحمد أبو عبد الرّحمان) (ت 175هـ/792م): كتاب العين، تحقيق مهدي المخزوميّ وإبراهيم السّامرائيّ، منشورات الأعلميّ للمطبوعات، ط 1، بيروت لبنان، 1988، مادة (خ، ر، ق) " الْخَرْقُ الشَّقُّ فِي حَائِطٍ أَو ثَوبٍ وَنَحوَهُ [...] وَالاخْتِرَاقُ كَالْاخْتِلاَقِ وَتَخَرُّقُ الكَذِبِ

ونحن إذا ما تأمّلنا الأمرين ألفيناهما يشتركان في طبيعة الحدث؛ فهما دالان على خروج النّبيّ (إدريس، عيسى،...) من حيّز الفضاء الأرضيّ إلى فضاء سماويّ.

وهي أحداث تدلّ مُجتمعة على قدرة الله على تسيير التّاريخ والتّدخّل فيه تدخّلا مباشرا أو غير مباشر، وهي دالّة أيضا على انتصاره للمؤمنين الصّادقين، لاسيما الأنبياء وأتباعهم، أضف إلى ذلك ما تُوحي به هذه القدرة من انتفاء للحدود بين عالم الله وعالم البشر، وذلك بفضل قدرة الله على الفعل متى شاء وكيف ما أراد. أمّا في ما يتعلّق بخرق منطق التّرابط بين الموجودات، فإنّنا نستحضر حادثتين متشابهتين، بل نكاد نقول إنّها حادثة واحدة، وهما إلقاء كل من النبي إبراهيم والنبي دانيال في النّار، ونجاتهما من الحرق بتعطيل قوّة الحرق في النّار، وقد حظيت حادثة إبراهيم باهتمام الفلاسفة المسلمين، أمثال حجّة الإسلام أبي حامد الغزاليّ (ت505 هـ) في "تهافت الفلاسفة".

إنّ خرق منطق السّببيّة دال على عدم قدرة النّار على الإحراق من ذاتها؛ فهي بذلك "عرض" يحتاج إلى "جوهر/ إرادة"، هي بالضّرورة الإرادة الإلهيّة، ممّا يعني أنّ لله القدرة المطلقة على تسيير الأشياء، والتّحكم فيها، فما من شيء إلاّ ويخضع للتّدبير الإلهيّ.

ب-3: الخلق على غير مثال

احتفت النّصوص المقدسة بالخلق على غير مثال، من ذلك خلق آدم وخلق حوّاء، وخلق المسيح، وهي أمثلة استخدمتها النّصوص المقدسة لتفسير ظهور الإنسان بالنّسبة إلى خلق آدم، ولتحديد أسباب الاختلاف بين الجنسين بالنّسبة إلى خلق حوّاء، وللتدليل على قدرة الله على الإتيان بالعجيب بالنّسبة إلى خلق المسيح.

فالخلق على غير مثال، وإنْ كان لا يخرج عن دائرة الوظيفة التّفسيريّة الّتي ميّزت الأساطير الشرقية، فإنّه في النّصوص المقدسة محاولة لإرساء نظام جديد هرميّ يكون الله فيه مُسيطرا على جميع جوانب الوجود والمخلوقات بما في ذلك الإنسان.

وهو حدث رسّخ بطريقة غير واعية في ذهن المُتقبّل التّفاوت بين الجنسين (الذّكر، الأنثى)، فإذا بالنّصوص المقدسة تحتفي بالذكر، وهي بذلك اختزلت الهواجس الوجوديّة للمجتمعات الشّرقيّة الذّكوريّة.

كَتَخَلُّقِهِ". أمّا الجوهري (إسماعيل بن حمّاد) (ت 386 هـ/997م): الصّحاح في تاج اللّغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، ط 4، بيروت لبنان،1990، مادة (خ، ر، ق) فـ "يُقَالُ [فُلاَنٌ] يَتَخَرَّقُ فِي السَّخَاءِ إِذَا تَوَسَّعَ فِيهِ" وخَرَقَ الثَّوبَ وخَرَّقَهُ فَانْخَرَقَ وتَخَرَّقَ وَاخْرَوْرَقَ وَيُقَالُ فِي ثَوبِهِ خَرْقٌ ".

ب-4: إحياء الموتى

تجلّى "إحياء الموتى" في النصوص المقدسة في شكلين، الأوّل على جهة الحقيقة. أمّا الثّاني، فمجازيّ يتعلّق بشفاء المرضى الّذين يُعانون من أمراض مُستعصيّة (المجانين، العميان...) اعتبرها اليهود دالة على نجاسة المصاب بها، وعلامة من علامات الغضب الإلهيّ وشكلا من أشكال الموت الرّوحيّ.

إنّ الشّكلين المشار إليهما حضرا في "العهد الجديد"، وفي "القرآن الكريم"، ونحن إذا ما قارنا بين النصين، ألفينا النص الإنجيلي أكثر احتفاء من النص القرآني بهذه الظاهرة، إذ ذكرت الأناجيل ثلاثة أحداث نُسب فيها فعل الإحياء إلى المسيح، وقد خضعت هذه الأحداث في مستوى بنائها السّرديّ إلى نسق واحد، يقوم على فقدان الميّت للحركة والرّوح، وبقائه أيّاما أو ساعات على هذه الحال، ليُعاد إلى الجسد الرّوح بمجرّد كلمة أو لمسة من يسوع. وكذا الأمر بالنّسبة إلى شفاء المرضى، فوجدنا هذه الأمراض المُستعصيّة تنتهي بمجرّد كلمة أو لمسة أو إشارة من يسوع وإنْ طال بصاحبها المرض.[50]

كان يسوع بذلك مانح الحياة للأموات بالمعنى الحقيقيّ والمجازيّ، وهو بذلك يعيدنا إلى فضاءات أسطوريّة قديمة، إذ كان الموت والإحياء من خصائص الآلهة.

ب-5: التّحكّم في عناصر الوجود

تجلّى التّحكّم في عناصر الوجود في النصوص المقدسة في ثلاثة مظاهر، تعلّق الأوّل بعناصر الطّبيعيّة، وهو الأكثر حضورا في النّصوص المقدسة. أمّا الثّاني، فتمثّل في التّحكّم في الكائنات الغيبيّة (الجنّ...). أمّا إذا ما نظرنا في الطّرف الّذي سخّر هذه الكائنات، فإنّنا نجده واحدا من اثنين، وهما الله أو واحد من أنبيائه، لاسيما سليمان في النّصّ القرآنيّ.

ومن مظاهر التّحكم في عناصر الطّبيعة إرسال الله الرّياح على قوم عاد، وإرسال الطّوفان على قوم نوح، وجعل الرّياح في خدمة النّبيّ سليمان،[51] وجعل البحر بساطا يمشي فوقه يسوع الذي لم يقتصر الأمر عنده على المشي فوق ماء البحر،[52] بل نجده يُهدّئ الأنواء البحريّة بالكلمة.[53] أمّا الصّنف الثّاني، ففيه أطاعت الجنّ

50- نشير في ما يتصل بهذا الأمر إلى أنّ النصوص الإنجيلية منحت بعض رسل المسيح – لا سيما بولس وبطرس- القدرة على إحياء الموتى ومداواة المرضى (أنظر العهد الجديد، أعمال الرّسل 9/33-40).

51- أنظر سورة فصّلت 16/41 وسورة العنكبوت 14/29 وسورة سبأ 12/34

52- نشير في ما يتصل بهذا الحدث إلى أنّ العهد الجديد (أُنظر إنجيل متّى 14/25-28) ذكر أنّ بطرس مشى فوق الماء شأنه في ذلك شأن المسيح، بيد أنّ التلميذ لمّا شكّ في صدق المعلّم (يسوع) غرق. ولا بدّ من الإشارة بخصوص هذه الحادثة إلى أنّ النص الإنجيلي لم ينسب إلى بطرس أيّ دور، فالرسول

والعفاريت وعناصر الطبيعة (الرياح،..) نبيّ الله سليمان بن داود،[54] وفي ذلك تحقيق لطموح الإنسان في التحكم في العالم غير المرئي ـ بعد أنْ تحكّم في العالم المرئي (الطير،..) ـ على أنّ الإنسان (النبي سليمان) لا قدرة له إلاّ بما أعطاه الله؛ فالله هو المسيّر لكلّ شيء في الوجود، جميع مَنْ في العَالمين يأتمر بأمره من بشر وحيوان وجان وشياطين الّتي أعلنت رفضها للإنسان،[55] نجدها تخدمه في قصّة سليمان النّبيّ؛ فهي وإنْ لم تكن راغبة في خدمته، فإنّها لم تعترض، لأنّها لو رفضت خدمة سليمان لكانت بذلك تعترض على إرادة الله.

ب-6: تكثير الموجود

نتناول في هذا العنصر حدثا واحدا يتمثل في إكثار يسوع الطّعام للجماعة التي كانت ترافقه؛[56] ففي "إنجيل مرقس41/6" "أَخَذَ يَسُوعُ أَرْغِفَةً خَمْسَةً وَسَمَكَتَيْنِ وَرَفَعَ نَظَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَبَارَكَ [...] فَأَكَلُوا جَمِيعًا وَشَبِعُوا".

قام توفير يسوع الطعام للجماعة على تكثير الموجود، وقد استمدّ المسيح القدرة على الفعل من ذاته، باعتباره الله المتجسّد في هيأة إنسان، ونحن إذا ما عدنا إلى أسفار "العهد القديم" ألفينا جملة من هذه الأفعال نُسبت إلى النّبيّ إيليا[57] وإلى النّبيّ إليشاع؛ فإليشاع[58] أكثر من طعام المرأة الّتي استضافته، بل إنّه أيضا بعث لها ابنها من الأموات،[59] وهي أفعال سبق أنْ نسبها "العهد القديم" إلى النبي إيليا[60] الّذي بعث من الموت ابن الأرملة التي أحسنت إليه، وملأ بيتها زيتا ودقيقا[61] رغم الجفاف الّذي يعمّ البلاد.[62]

بطرس مشى فوق الماء بعد أنْ لبّى يسوع رغبته (بطرس) «إِنْ كُنْتَ أَنْتَ هُوَ، فَمُرْنِي أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ مَاشِياً عَلَى الْمَاءِ!» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «تَعَالَ!»" كي يرفع عنه الشكّ، وهو ما يعني أنّ مشي بطرس على الماء بقي مرتبطا بقدرة يسوع.

53- أنظر العهد الجديد: إنجيل مرقس 4/35-41 و6/45-52

54- أنظر سورة ص 38/36-38

55- أنظر سورة البقرة 2/ 34 وسورة الحجر 31/15

56- أنظر كذلك العهد الجديد: إنجيل متّى 14/15-21 وإنجيل لوقا 9/10-17 وإنجيل يوحنّا 6/1-14

57- إلياهو اسم عبري معناه «إلهي هو يهوه»، والصيغة اليونانية للاسم هي «إلياس» الّتي استُعملت في القرآن الكريم، وقد عاش في النّصف الأوّل من القرن التّاسع قبل الميلاد. في المملكة الشّماليّة، معاصرا كلّا من الملكين أخاب وزوجته إيزابل وأحازيا، وقد لاقت دعوته صدى طيّبا في الأوساط الفقيرة لما تضمّنته من ثورة ضد الظّلم الاجتماعيّ القائم آنذاك. ويعدّ إيليا من أهمّ أنبياء العهد القديم المتأخّرين، وفي الأدبيات المسيحيّة يُعدّ أهم خيط رابط بين العهد القديم والعهد الجديد.

58- إليشاع اسم عبري معناه "الله خلاص" أحد أنبياء المملكة الشّماليّة، وقد ذكر "العهد القديم" أنّه خلف النّبيّ إيليا هو الّذي مسح إليشاع (أنظر العهد القديم، سفر ملوك الأول 19/17. وفي قصّته نعثر على أحداث متخيّلة، من أهمّها أنّه كان يعلم الغيب (أنظر العهد القديم، سفر ملوك الثاني 3/11-27)، وهو منْ طهّر المياه من تلوّثها (سفر ملوك الثاني 2/19-22)، وهو من أبرأ النعمان الدمشقي من البرص يوم صبّ عليه بعض مياه نهر الأردن (أنظر العهد القديم، سفر ملوك الثاني 2/1-19).

59- أنظر العهد القديم، سفر ملوك الثاني 4/42-44

60- أنظر العهد القديم، سفر ملوك الأوّل 17/17-24

61- أنظر العهد القديم، سفر ملوك الأوّل 17/15-16

62- أنظر عبد الملك (بطرس): مقال إيليا في قاموس الكتاب المقدّس، دار الثقافة، ط 2، القاهرة مصر، (د ت)، من ص 144 إلى ص 145

إنّ هذين الأمرين يكرعان من عالم العجائب بامتياز، فهما ينفيان أنْ تكون ثمّة علاقة بين الأشياء من أيّ نوع، وهما يعمدان إلى رسم صورة أسطورية للبطل (إيليا، إليشاع، يسوع،...) تخرج به عن البعد البشريّ.

وبناءً على ذلك، يكون "الحدث المُتخيّل" حدثا يقطع مع المكان والزّمن في بعديهما المألوفين، ويشرّع لتجلّي الإلهيّ في التّاريخ؛ فالكلمة في هذه الحادثة مشحونة بقدرة غيبيّة عجائبيّة.

أدّى تشابه التقنيات وحضور الواحدة في أكثر من نص إلى تطابق الأحداث وقيامها على مبدأ المحاكاة التي تجلّت في النصوص المقدسة في شكلين: يتّصل الأوّل بالنص الواحد؛ ففي الكثير من الأحيان يُنسب الحدث المتخيّل الواحد إلى أكثر من نبي (البشائر بالمولود في النص التوراتي،...). أما الشكل الثاني، فمداره علاقة هذا النص أو ذاك بالنصوص السابقة له، ففي أحيان كثيرة نسب هذا النص حدثا متخيّلا إلى نبي غير النبي الّذي نُسب إليه الحدث في النص السابق.[63]

ج- التّركيب

نقصد بالتركيب الجمع بين المتناقضات، ويتّخذ التركيب في النصوص المقدّسة أشكالا عديدة أهمّها: جعل الحيوان يتكلّم، وجعل أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة، ومحاورة العاقل لغير العاقل.

ج-1: الحيوان يتكلّم[64]

إنّ تكليم الحيوان للإنسان ليس سمة مميّزة للنصوص المقدّسة للأديان التوحيديّة؛ فهذه النصوص لا تُعدّ في هذا الباب خرقا للسائد من التّصوّرات الدينية، ففي العديد من الثّقافات القديمة كان الحيوان على صلة بعالم البشر، إذ كان الواحد منهما امتدادا للآخر، من ذلك أنّ المصريين صوّروا آلهتهم وملوكهم في رسوم جامعة

63- قارن بين العهد القديم، سفر الخروج 32/1-6 والقرآن الكريم، سورة طه 20/85-97؛ ففي الأول كان هارون أخو موسى من صنع العجل . أمّا في الثاني فنُسب هذا الفعل إلى السامري. أُنظر دلالات هذا الاختلاف بين النصين في إدريس(محمّد): متخيّل أحداث قصص الأنبياء والرسل في الكتاب المقدّس والقرآن الكريم، أطروحة دكتوراه موحده بإشراف الأستاذ حمّادي المسعودي،(بحث مرقون) بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، جامعة القيروان: السنة الجامعية 2010-2011، ص ص 303-304

64- تكليم الإنسان للحيوان هو شكل من أشكال التواصل مع غير العاقل، في ما يتصل بهذه المسألة نشير إلى أمرين، يتمثّل الأمر الأوّل في أنّ النصوص المقدّسة – في مواضع قليلة - جعلت الطيور تتواصل مع الإنسان (النبي،..) دون أنْ يكّلمها أو تكلّمه، من ذلك أنّ " العهد القديم" جعل الغربان تأتي بالطعام إلى النبي إيليا دون أنْ يطلب منها ذلك (أُنظر سفر ملوك الأول 17/4-7). أمّا الأمر الثّاني، فمداره على أنّ تكليم الإنسان لغير العاقل قد طال أيضا الجماد (الحجارة،...)، من ذلك أنّ أخبارا عديدة نسبت إلى الحجر الأسود أقوالا توجّهت بها إلى البشر، وللمزيد من التوسّع في هذه المسألة أُنظر ذويب (حمّادي): الحجر الأسود في الإسلام بين المقدّس والتاريخ، (سبق ذكره)، ص 325 وص 326

للصفات الحيوانية والبشرية،[65] بل إنّ الحيوان نهض في أساطير الشرق القديم بأدوار مختلفة، فكانت حارسة الآلهة وحاميتها.[66]

وفي هذا السياق، نشير إلى أنّ النصوص المقدسة في استدعائها للحيوان لم تتّخذ شكلا واحدا، إذ تنوّعت الأدوار المنوطة به، فنهض بدور الوسيط بين الرب الإله والإنسان (النبي) حينا، وكان مخلوقا مسخّرا للنبي حينا آخر. ففي العديد من المواضع خدمت الطيور والزواحف ومختلف الحيوانات الله أو النّبيّ أو الإنسان، من ذلك أنّ الغراب في صراع ابني آدم كان المعلّم الّذي بيّن للقاتل كيف يدفن الأخ،[67] وفي ذلك تحقيق لبعض المقاصد الإلهيّة (دفن الأموات،...).

ولا يخرج عن هذا التصوّر تكليم الهدهد لسليمان كلام الإنسان للإنسان، ومحاورة الحيّة لكل من آدم وحوّاء عندما كانا في جنّة عدن. فالحيوان في هذين المثالين كائن لا يختلف عن الإنسان الشيْء الكثير، بل وجدناه يسهم في بناء الحضارة الإنسانيّة من خلال تعليمه الإنسان مراسم الدّفن، وكأنّنا بالنّصّ المقدس يعلن للإنسان أنّ لا فضل له على سائر المخلوقات (الحيوانات، النباتات، الجوامد،...) إلاّ بما أودعه الله فيه من نعم وقدرات.

ميّز النص القرآني النبي سليمان بن داود– مقارنة بالعهد القديم – بالقدرة على التواصل مع جملة من المخلوقات، مثل الطير (الهدهد) والحشرات (النّمل). فالآيات القرآنية الممتدة من الآية الثامنة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين من سورة النمل، ذكرت حدثين تمثّل الأول في فهم سليمان لأقوال النّمل؛ ففي الآية نقرأ: "أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ".[68] أمّا الحدث الثّاني، فيتمثّل في "تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ [...فلمّا جاء] مَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ."[69]

65- نتبيّن أثر هذا التصور في النصوص الحافة بالنص المقدس في الثقافة العربية الإسلامية، من ذلك أنّ عليا المسعودي ذكر في مروج الذّهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، ط 1، بيروت لبنان، 1987، ج 2، ص 294 أنّ المخلوقات الّتي سبقت آدم جمعت بين الصفات البشرية والصفات الحيوانية.

66-Voir Bailey (Adriana):Ecole Biblique, traduction par Christine Lalier, édition, G.P.Maisonneuve, Paris, p27, p102.

67- ذكر الجاحظ (أبو عثمان): كتاب الحيوان، (سبق ذكره)، ج 3، ص 411 جملة من الصّفات الّتي حمدتها العرب في الغراب، وهي - في تقديرنا – الصفات التي أهّلته لأنْ يقوم بدور المعلّم في صراع ابني آدم.

68- أنظر سورة النمل 27/18-19

69- أنظر سورة النمل 27/22

قامت نبوة سليمان في النص القرآني على أحداث متخيّلة فيها خرق للمألوف والمرتقب، إذ تتداخل عوالم عديدة (الجنّ، الطيّر، عناصر الطبيعة/ الرياح، البشر) لتكوّن مجتمعة عالما عجيبا،[70] تختفي فيه الفوارق بين المخلوقات.

ج-2: إنطاق الحواس والأعضاء في الآخرة/ صورة أهل الجحيم

خصّ "القرآن الكريم" يوم القيامة بقسط لا بأس به من الآيات والسور،[71] وما يلفت الانتباه في تلك المواضع تناولها لمصائر العباد في الآخرة، وما يلقاه ساكنو الجحيم من عذابات؛ ففي آيات قرآنية عديدة تصوير لسعي أهل السعير إلى نفي الشرك والكفر عن أنفسهم، وفشلهم في ذلك بسبب شهادة بعض حواسهم وأعضاء أجسادهم عليهم، وهو ما يتجلّى في مواضع عديدة منها قوله تعالى في سورة النور24/22: "يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ". وقوله في سورة فصلت19/41 -21: "وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ".

ففي ما يتعلق بالموضع الأوّل (النور24/22) ذهب أغلب مفسّري "القرآن الكريم"، لا سيما أولئك الذين ينتمون إلى الأشعرية والظاهرية- إلى أنّ الألسن والأيدي والأرجل وسائر أعضاء الجسد تعترف بما فعل أصحابها، وذلك "بإنطاق الله تعالى إيّاها بغير اختيارهم [... وقد يكون ذلك] بظهور آثاره عليها، وفي ذلك مزيد تهويل للعذاب."،[72] وهو أمر ينسحب على الموضع الثاني (فصلت19/41-21)؛ فالحواس من سمع وبصر ولمس... تشهد على أصحابها، "إذ تنطق بلسان الحال [...] ما نطقنا باختيارنا، بل أنطقنا الله الّذي أنطق كل شيء".[73]

يوم القيامة يوم شهادة، شهادة حقّ لا سبيل إلى الكذب فيها ...، وليس ثمّة شهادة أصدق من تلك يدلي بها الإنسان ضد نفسه، وفي هذا السياق باتت أعضاء الجسد وحواسه الشاهد الصادق.

70- أنظر القمني (السّيد): الأسطورة والتّراث، دار سينا،ط 1، القاهرة مصر، 1992، ص 205

71- أنظر في ما يتصل بالسور القرآنية المتعلقة بـ"البعث والجزاء ومشاهد القيامة الجابري (محمّد عابد): فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول (القسم الأوّل)، مركز دراسات الوّحدة العربية، ط 1، بيروت لبنان، 2008، من ص141 إلى ص 205

72- أنظر البيضاوي الشيرازي (القاضي ناصر الدّين): تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل،(سبق ذكره)، مج 2، ص 120

73- أنظر المرجع نفسه، الجزء نفسه، ص 351

ولا غرابة في ذلك، ففي المتخيّل الإسلامي الله هو القادر على كل شيء، فـ"إنْ قلت كيف تشهد عليهم أعضاؤهم، وكيف تنطق؟ قلت: الله عزّ وجلّ ينطقها كما أنطق الشجرة بأنْ يخلق فيها كلاما".[74]

إنّ شهادة الأعضاء والحواس أحداث متخيّلة تقوم على تجاوز المألوف في الحياة الدنيوية للإنسان، وفي ذلك إحالة على أنّ يوم الآخرة يوم مغاير لما في الدنيا، ولعل تكلّم الجوارح تعبير عن تلك المغايرة، بيد أنّ ما يلفت الانتباه في كتب التفسير القديمة، اختلاف أصحابها في دلالة الشهادة "تشهد"؛ ففي "مفاتيح الغيب" نقد فخر الدين الرازي (ت606هـ) التصوّر المعتزلي القائل بأنّه " لا يجوز ذلك [تكلّم أعضاء الجسد ولتأكيد ما ذهبوا إليه قدّموا] وجهين: الأوّل أنّه سبحانه يخلق في هذه الجوارح هذا الكلام، وعندهم المتكلّم فاعل الكلام، فتكون تلك الشهادة من الله تعالى في الحقيقة، إلاّ أنّه سبحانه وتعالى أضافها إلى الجوارح توسّعا".[75]

لقد دفع التّصوّر المعتزلي[76] بالعديد من المفسرين القدامى (البيضاوي الشيرازي،..)[77] والمعاصرين (محمّد جمال الدّين القاسمي،...) إلى التردّد في تحديد دلالات الشهادة، فتارة كانت الشهادة دالة على تكلّم الحواس والأعضاء، وطورا آخر كانت دالة على "ظهور آثار ما عمل [الإنسان] عليها [الحواس]"،[78] وفي ذلك إقرار بأنّ لا شيء يمنع من القول إنّ "النطق مجاز عن الدلالة."[79]

74- أُنظر الزّمخشري (جار الله محمود بن عمر): الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحقيق وتصحيح علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، مكتبة العبيد كان، ط 1، الرّياض السعوديّة، مج 5، ص 378

75- الرّازي (فخر الدّين محمّد): مفاتيح الغيب، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، تحقيق وتقديم الشيخ خليل الميس، دار الفكر، ط 1، بيروت لبنان، 1990، مج 23، ص 194 ص 195

76- إنّ قول فخر الدين الرازي بأنّ المعتزلة قد اعتبروا أنّ الجوارح المذكورة في الآيات القرآنية المشار إليها أعلاه قائمة على المجاز، وأنّ المقصود غير ما يظهر اللفظ أمر يحتاج إلى تنسيب – في تقديرنا - من ذلك أنّ جار الله محمود بن عمر الزمخشري أقّر بأنّ المقصود بالجوارح ما هو ظهر في اللفظ، أنظر في ذلك الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، (سبق ذكره)، مج 4، ص 281 ومج 5، ص 378

77- أُنظر البيضاوي الشيرازي (القاضي ناصر الدّين): تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، (سبق ذكره)، مج 2، ص 120

78- أُنظر القاسمي (محمّد جمال الدّين): ري الغليل من محاسن التّأويل، دار النّفائس، ط 1، بيروت لبنان، 1994، ص 352

79- أُنظر المرجع نفسه، ص 479

خاتمة

كانت التقنيات التي وقفنا عليها متعددة، وقد اختلفت النصوص المقدسة في الاستناد إليها، وقد كانت غايتنا من البحث في التقنيات التي توسلت بها النصوص المقدسة في بناء الأحداث المتخيلة (العجيبة، الغريبة،...) النظر في طرق بناء النصوص لدلالاتها، إذ سعينا إلى الوقوف عند مميزات جملة من التقنيات التي تجلّت من خلالها "الأحداث المُتخيّلة" الواردة في "قصص الأنبياء والرسل". وانتهينا إلى أنّ بعض التقنيات يقتصر حضورها على نص دون غيره (التجسّد في الكتاب المقدس)، بل إنّ التقنيات المعتمدة في أكثر من نص اختلفت دلالاتها من نص إلى آخر، وفي النص الواحد أيضا، فتحويل الإنسان حيوانا مسخ (عقاب)، وتحوّل الملائكة أو الإله بشرا عدّ تجسّدا، وهو ما يعني أنّ اختلاف التصورات هو الّذي يحدّد ماهية الآلة؛ فالحية التي نبصرها تزحف في الرمل في "التوراة" عُدّ التصاقها بالأرض مسخا لها، فإذا ما تصوّرنا الحية بقوائم أربع كان ذلك عندنا مسخا وكان عند المؤمن بـ "التوراة" عودة إلى الأصل.

وقد لاحظنا في ما يتعلق باشتراك النصوص في بعض التقنيات، أنّ الاتفاق بينها قام على مبدإ المحاكاة الذي قام بالأساس على مستويين، وقد تجلّى المستوى الأول داخل النص الواحد، في حين يتمثّل الثاني في مجاراة النص المقدس للنص السابق.[80]

لقد قامت علاقة النص المقدس بالنص السابق له على الاقتباس والتشابه في جملة من التقنيات، وهو ما جعلنا نتساءل: عما إذا كانت علاقة النص المقدس بالسابق له علاقة نسخ أم أنّ وراء التطابق خصوصية؟ ذلك أنّ التقنيات التي حضرت في أكثر من نص قد اختلفت الدلالات المتعلقة بها من نص إلى آخر، وبناء على ذلك يمكن القول إنّ اختلاف التصورات هو الّذي يحدّد ماهية الآلة والأدوار التي تؤدّيها. فأغلب التقنيات المذكورة في النصوص المقدّسة قامت على البعد الحسي، إذ ارتبطت بجملة من الحواس، وفي ذلك محاولة لإيجاد صلة لها بالإنسان (المسخ، الفسخ، ...).

ونحن إذا ما رمنا تبيّن الجوامع بين تلك التقنيات ألفيناها لا تخرج عن شكل من اثنين: يتمثل الأول في أنّ أغلب التقنيات دلّت على تشابه بين عالمي الشّهادة والغيب، فإذا بالوجود البشريّ مجرد فضاء يتجلّى من خلاله

80- نسب بعض المسلمين إلى الرسول إكثار الطعام، وفي ذلك محاكاة لما أتاه المسيح، أُنظر بعض ما ذكره الجزّار (منصف): المخيال العربي في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول، (سبق ذكره)، ص 624. أمّا كتب القدامى ففيها عدد لا يُستهان به من قصص أصحاب الكرامات، إذ ذكر محيي الدّين بن عربي جملة من معجزات السّيد الخضر الذي شاهده في تونس، وهو يمشي على ماء البحر، وقد نسب هذا الأمر يوسف النبهاني إلى بهاء الدين نقشبنذ (أُنظر رسالة روح القدس في محاسبة النّفس لابن عربي تحقيق علي بن أحمد ساسي، الدّار العربية للكتاب، تونس، 2004، وأُنظر جامع كرامات الأولياء للنبهاني (ت 1350 هـ/1931 م)، المكتبة العصرية، ط 1، صيدا لبنان، 2001، ج 1، ص 227)، وفي ذلك محاكاة لمشي بطرس فوق مياه البحر (إنجيل متّى 25/14)، على أنّ هذا التّقارب لم يقتصر على المعجزات و الكرامات، بل طال ممارسات أهل السّحر، أُنظر بخصوص هذه المسألة ما كتبه .

(Marcel)(1872-1950): Sociologie et anthropologie, Seuil, 3 ém Ed, Paris, 1989, p15 Mauss

الفعل الغيبيّ، في حين تعلق الثاني بقيامها على بعد حسيّ، إذ ارتبطت أغلب التقنيات بجملة من الحواس، مثل اللّمس والبصر، وفي ذلك محاولة لإيجاد صلة لها بالإنسان، فهو مركز الأحداث وعليه مدار الكلام والفعل، فلا قيمة للمسخ أو الفسخ، ما لم يع الإنسان أنّه عقاب إلهي مسلّط عليه، وهو من هذا المنظور شكل من أشكال الإقناع الّتي مارسها الخطاب الدّينيّ في دعوته الإنسان إلى الإيمان.

ومن الواضح، أنّ جميع التقنيات كانت تروم تأكيد تداخل عالمي الغيب والشهادة، بجعل وقوع المستبعد ممكنا، وبفضل تلك التقنيات تسنّى للقارئ التحليق في عوالم لم يُحلّق فيها من قبل، ففُتحت أمامه أبواب الغيب، فإذا بالمتخيّل قوّة خلق تجعل المعدوم موجودا، وتمحو الفواصل بين عالم الغيب المجهول وعالم الأعيان المشهود، لتكون تلك القوّة عنصر انسجام وتوافق بين عوالم متباينة في خصائصها.

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com